إعداد/ سيد سعد
المشـــرف الفني
صاحب مدونة مكسرات
elsayed_saad@hotmail.com

قصّة فانوس رمضان

كان شهر رمضان بالنسبة للأطفال عبارة عن شمعة مشتعلة داخل فانوس، فانوس رمضان احد المظاهر الشّعبيّة الأصلية في مجتمعنا. وهو أيضا واحد من الفنون الفلكلوريـــة الّـــتي نالت اهتمام الفنّانين والدّارسين حتّى أن البعض قام بدراسة أكاديميّة لظهوره وتطوره و ارتباطه بشهر الصّوم ثمّ تحويله إلى قطعة جميلة من الدّيكور العربي في الكثير من البيـــوت المصريّة الحديثة. وقد نوقشت أكثر من رسالة للماجســـتير والدّكتوراه عن تاريخ الفانوس الّذي ظلّ عبر العصور احد مظاهر رمضان وجزءا لا يتجزأ من احتفالاته ولياليه.

استخدم الفانوس في صدر الإسلام في الإضاءة ليلاً للذهاب إلى المساجد وزيارة الأصدقاء والأقارب. أما كلمة الفانوس فهي إغريقية تشير إلى إحدى وسائل الإضاءة، وفي بعـــض اللغات السامية يقال للفانوس فيها 'فناس'،ويذكر الفـــيروز أبادي مؤلف القاموس المحيط، أن المعني الأصلي للفـــانوس هو "النمام" ويرجع صاحب القاموس تسميته بهذا الاســـم إلي أنه يظهر حامله وسط الظلام والكلمـــة بهـــذا المعـــني معروفه.

تعتبر مصر هي أكثر الدول استخداماً للفانوس بـــين كـــل الدول الإسلامية كتقليد في شهر رمضان، وهناك العديـــد من القصص عن أصل الفانوس؛ أحد هـــذه القصـــص أن الخليفة الفاطمي كان يخرج إلى الشـــوارع ليلـــة الرؤيـــة ليستطلع هلال شهر رمضان، وكان الأطفال يخرجون معه ليضيئوا له الطريق. كان كل طفل يحمل فانوســـه ويقـــوم الأطفال معاً بغناء بعض الأغاني الجميلة تعبيراً عن سعادتهم باستقبال شهر رمضان. هناك قصة أخرى عن أحد الخلفاء الفاطميين أنه أراد أن يضئ شوارع القاهرة طـــوال ليـــالي شهر رمضان، فأمر كل شيوخ المساجد بتعليق فوانيس يتم إضاءتها عن طريق شموع توضع بداخلها.

وتروى قصة ثالثة أنه خلال العصر الفاطمي لم يكن يُسمح للنساء بترك بيوتهن إلا في شهر رمضان وكـــان يســـبقهن غلام يحمل فانوساً لتنبيه الرجال بوجود سيدة في الطريـــق لكي يبتعدوا، وبهذا الشكل كانـــت النســـاء تســـتمتعن بالخروج وفي نفس الوقت لا يراهن الرجـــال. وبعـــد أن أصبح للسيدات حرية الخروج في آي وقت، ظـــل النـــاس متمسكين بتقليد الفانوس حيث يحمل الأطفال الفـــوانيس ويمشون في الشوارع ويغنون.

وهناك قصة أخرى؛ تقول أن الفانوس تقليد قبطي مـــرتبط بوقت الكريسماس حيـــث كـــان النـــاس يســـتخدمونه ويستخدمون الشموع الملونة في الاحتفال بالكريسماس.

والثابت أن المصريين عرفوا فانوس رمضان في الخامس من شهر رمضان عام ٣٥٨ هـــ وقد وافق هذا اليوم دخـــول المعز لدين الله الفاطمي القاهرة ليلاً فاستقبله أهلها بالمشاعل والفوانيس وهتافات الترحيب، وقد تحول الفـــانوس مـــن وظيفته الأصلية في الإضاءة ليلاً إلى وظيفة أخرى ترفيهيـــة

إبان الدولة الفاطمية، حيث راح الأطفال يطوفون الشوارع والأزقة حاملين الفوانيس ويطالبون بالهدايا من أنواع الحلوى التي ابتدعها الفاطميون ، كما صاحب هؤلاء الأطفال – بفوانيسهم – المسحراتي ليلاً لتسحير الناس، حتى أصبح الفانوس مرتبطاً بشهر رمضان.

وقد بدأت صناعة الفوانيس منذ العصر الفاطمي تتخذ مسارا حرفيا وإبداعيا في الوقت ذاته، فظهرت طائفة من الحرفيين في صناعة الفوانيس بأشكالها المتعددة وتزييناتها وزخرفتها حيث كان الفانوس يُصنع من النحاس ويوضع بداخله شمعة، بعد ذلك أصبح الفانوس يُصنع من الصفيح والزجاج الملون. و لم يتشكل الفانوس في صورته الحالية إلا في نهاية القرن التاسع عشر وأصبح يستخدم إلى جانب لعب الأطفال في تزيين وإضاءة الشوارع ليلا كما كانت وظيفته الأصلية خلال شهر رمضان رغم وجود وسائل الإضاءة الحديثة.

المسحراتي

المسحّراتي صورة لا يكتمل شهر رمضان بدونها ، وهو يرتبط ارتباطا وثيقا بتقاليدنا الشّعبية الرّمضانيّة، فقبل الإمساك بساعتين يبدأ المسحّراتي جولته الّليلية في الأحياء الشّعبية موقظاً أهاليها للقيام على ضرب طبلته وصوته الجميل يصدع بأجمل الكلمات مما يضفي سحرا خاصّا على المكان، ومن العبارات المشهورة للمسحّرين قولهم :

يا نايم وحّد الدّايم — يا غافي وحّد الله

يا نايم وحّد مولاك — اللي خلقك ما بنساك

قوموا إلى سحوركم — جاء رمضان يزوركم

ويقوم بتلحين هذه العبارات بواسطة ضربات فنّية يوجّهها إلى طبلته. وقديماً كان المسحّراتي لا يأخذ أجره، وكان ينتظر حتى أول أيام العيد فيمر بالمنازل مترلاً مترلاً ومعه طبلته المعهودة ، فيوالي الضّرب على طبلته نهار العيد لعهده بالأمس في ليالي رمضان، فيهب له النّاس بالمال والهدايا والحلويّات ويبادلونه عبارات التّهنئة بالعيد السّعيد.

وقد كان بلال بن رباح أول مؤذّن في الإسلام وابن أم كلثوم يقومان بمهمّة إيقاظ النّاس للسّحور. الأول يؤذّن فيتناول النّاس السّحور، والثّاني يمتنع بعد ذلك فيمتنع النّاس عن تناول الطّعام.

وأول من نادى بالتسحير عنبسة ابن اسحاق سنة ٢٢٨ هـ وكان يذهب ماشياً من مدينة العسكر في الفسطاط إلى جامع عمرو بن العاص وينادي النّاس بالسحور، وأول من أيقظ النّاس على الطّبلة هم أهل مصر. أما أهل بعض البلاد العربيّة كاليمن والمغرب فقد كانوا يدقّون الأبواب بالنبابيت، وأهل الشّام كانوا يطوفون على البيوت ويعزفون على العيدان والطّنابير وينشدون أناشيد خاصّة برمضان.

مدفع رمضان

يقال أن أحد رجال السّلطان "خشقدم" – من سلاطين المماليك– تمكّن من إعداد مدفع كبير وقدمه هديّة إليه، وسر السّلطان بهذا المدفع وأمر بحمله على عربة تجرّها عشرة خيول يحف بها موكب كبير سار حتى استقر في ميدان القلعة بالقاهرة، وأجريت تجربة إطلاقه في أول يوم من أيام رمضان عام ٨٦٩ هـ \ ١٤٦٤م مع آذان المغرب. ثم أمر السّلطان بتكرار التّجربة في اليوم الثّاني، فكان لصوت المدفع أثره على سكّان العاصمة مما جعل السّلطان يأمر بإطلاقه عند الغروب ليكون إيذانا بانتهاء النهار.

وهناك رواية تفيد بأن ظهور المدفع جاء عن طريق الصدفة، فلم تكن هناك نية مبيتة لاستخدامه لهذا الغرض على الإطلاق، حيث كان بعض الجنود في عهد الخديوي إسماعيل يقومون بتنظيف أحد المدافع، فانطلقت منه قذيفة دوت في سماء المحروسة، وتصادف أن كان ذلك وقت أذان المغرب في أحد أيام رمضان، فظن الناس أن الحكومة اتبعت تقليداً جديداً للإعلان عن موعد الإفطار، وساروا يتحدثون بذلك، وقد علمت الحاجة فاطمة ابنة الخديوي إسماعيل بما حدث، فأعجبتها الفكرة، وأصدرت فرماناً يفيد باستخدام هذا المدفع عند الإفطار والإمساك وفى الأعياد الرسمية.

الدوريات
- مجلة صندوق الدنيا، عدد ١١١ مايو ١٩٨٧م
- هدى الإسلام، رمضان١٤٠٣هـ/١٩٨٣م